**النظريات التكوينية في علم الجريمة (2)**

ب . نظرية التكوين العضوي:

يمكن تناول هذه النظرية من خلال أهم روادها ومنظريها وهم " كرشتمر وشيلدون وجلووك " وعلى النحو الآتي:

1 . أرنست كرشتمر:

يعد الطبيب النفسي الألماني "ارنست كرشتمر "E. Kretschmer "1881-1964" أول من قام بإرساء قواعد نظرية التكوين النفسي التي أعتمد عليها معظم الكتٌاب اللاحقين، وهي نظرية تدور افتراضاتها حول علاقة البنية الجسدية بالشخصية وبينهما وبين الشذوذ والتخلف العقلي. وبدءاً حاول" كرشتمر " التمييز بين ثلاث فئات تكوينية هي:

\* الضعاف واهنو البنيةAsthenic : ويتميزون بالأطراف النحيلة والأكتاف الضيقة والأذرع الضعيفة التي تمتاز بنقص نمو العضلات فيها، وظهور علامات الشيخوخة المبكرة في سن الخامسة والثلاثين أو الأربعين عاماً حيث يصابون بفقدان الذاكرة، ويتميزون بالانطواء والعزلة وبرودة العواطف.

\*\* ذوي البنية الجسدية الرياضيةAthletic : ويتميزون بالنمو الهيكلي والعضلي عكس ميزات النموذج السابق، ويتميزون بالاتزان والثبات إلاّ أنهم قد يثورون ويتفجرون غيظاً أحياناً.

\*\*\* قِصار القامة " البدينون" Pyknic : ويتميزون بتركز طبقةٌ دهنيةٌ في وسطهم، ويتمتعون بمزاجية مرحة، والصدق، والاختلاط بالآخرين.

وقال"كرشتمر " بإمكانية وجود فئة رابعة تشتمل على أشخاص يتميزون بصفات مشتركة تمثل خليطاً من صفات الفئات السابقة، كذلك بإمكانية وجود فئة خامسة يختلف أعضاؤها في خواصهم البدنية والمزاجية عن جميع الفئات السابقة أرجعها إلى أن أصحابها قد يكونون مصابين بحالات مرضية ينجم عنها عدم ضبط وتوازن إنزيمات الغدد لديهم.

وحاول "كرشتمر " أن يضع نظرية عامة عن البنية والشخصية وعلاقتها بالصحة العقلية أو عدمها، عند دراسته جميع الصفات البدنية والمزاجية التي تتميز بها الفئات السابقة. وقد أكد على أن تلك الصفات إنما يتصف أصحابها بأنهم عاديون، ولكنهم غير طبيعيين في الوقت نفسه. وتتمثل العادّية بالنسبة لهم من خلال تواجدهم على الطبيعة بشكل متكرر وذلك من وجهة نظر علم الأجناس البشرية. أمّا من حيث أنهم غير طبيعيين، فيرجع إلى أنهم يعكسون استعدادات شاذة تجعلهم يميلون نحو إظهار حالات مرضية كامنة.

وفي خطوة لاحقة حاول" كرشتمر " أن يحدد العلاقة بين نماذج أو فئات البنية وبين مختلف الأمراض العقلية حينما أكد على أن الشخص الضعيف الواهن الطويل تظهر عليه أعراض "الجنون المبكر "Dementic Praecox التي تسمى الآن "الفصام "Schizophrenia حيث يبتعد عن عالم الحقيقة ويصيب حياته العقلية والانفعالية تدهور شديد، وبصورة عامة يتميز هذا النمط بالاكتئاب.

أمّا الأشخاص الذين تغلب عليهم السمنة والقصر والارتخاء، والذين لهم أجساد مستديرة فتظهر عليهم أعراض"الجنون الدوري"، وهذا النمط يمتاز بالمرح والانبساط وسرعة التقلب والصراحة وسهولة عقد الصداقات."37"وان الفئة الأولى، ممّن تميل إلى إظهار أعراض مرض الفصام، لا ينتابها غالباً ما ينتاب الفئة الأخيرة والعكس صحيح.

لقد كان لإسهامات"كرشتمر" السابقة اثر على التحليل النفسي عامة، وعلم الجريمة خاصة، ما فتح الأبواب واسعة أمام الباحثين لاسيما في أوربا لإجراء أبحاثهم الميدانية والمختبرية عن علاقة نماذج البنية بالجريمة. وأقيمت العديد من الجمعيات العلمية التخصصية في مجال التكوين الحيوي – الإجرامي على غرار تلك التي أُنشئت بمدينة "جراتز" النمساوية عام "1927" التي كان أهم روادها عالم الجريمة النمساوي" أدولف لنز" ويمكن تحديد الجرائم والخصائص الإجرامية لكل من الفئات السابقة كما يلي:

أ . تتحدد نسب فئات المجرمين" نزلاء السجون " تماماً مثلما هي موزعة بين جمهور العامة- الأسوياء- كما يلي: (20%) تقريباً من قصيري القامة بديني الجسد- الفئة الثالثة- (40-50%) من ضعفاء البنية وذوي البنية الرياضية- الفئتين الأولى والثانية- (5-10%) ممّن يختلفون في الخصائص عن أي من هذه الفئات- الفئة الخامسة-( 30%) من-الفئة الرابعة- ومع ذلك فإن نسبة البدناء قصيري القامة في عينات المجرمين تقل قليلاً لدى العامة.

ب . يتميز البدناء قصيري القامة عن غيرهم بسهولة تكيفهم في المجتمع، ويرتكبون جرائمهم في الغالب حين يتقدم بهم العمر-40 – 50 سنة- ونسبة عودتهم إلى الجريمة منخفضة مقارنة بالفئات الأخرى. وبالنسبة لضعفاء البنية فغالباً ما ترتكب جرائمهم في سني العمر المنخفضة. أمّا ذوي البنية الرياضية القوية فإنهم يرتكبون جرائمهم خلال مختلف سني العمر، وحتى مراحل العمر المتقدمة- 55 سنة- فأكثر.

ت . تتحدد أنواع الجرائم لكل من الفئات المحددة سابقاً في الآتي:-

\* الضعفاء واهنو البنية ->->->> جرائم السرقة والنصب والاحتيال " ضد الأموال."

\*\* ذوو البنية الرياضية القوية ->->->> الجرائم ضد الأشخاص والجرائم الجنسية.

\*\*\* قصيرو القامة "البد ينون" ->->->> جرائم التزييف والتزوير " ضد الأموال."

\*\*\*\* المتصفون بالخصائص المختلطة ->->->> الجرائم الجنسية.

2. وليام شيلدون:

كان شأن عالم الأجناس البشرية "وليام شيلدون "W. Sheldon "1898-1977" شأن العالم الألماني" كرشتمر "اعتقد بوجود فئة من الأفراد يميلون بالفطرة إلى استغلال الآخرين والعيش على حساب الغير دون أن يؤدوا أي عمل معين مقابل ذلك. من هنا أراد أن يضع أُسس علم طب تكويني للأمراض العقلية ليفسر من خلاله التكوين الجسمي والمزاجي والعقلي للمجرم. وقد تحرر" شيلدون " من فكرة الأنماط وحاول أن يصف" أبعاد تكوين الجسم " Dimensions of Body ولكنه تصور هذه الأبعاد متصلة ومستمرة وليست قوالب مستقلة كما فعل "كرشتمر.""40"وانتهى إلى تقسيم الإنسان إلى ثلاثة نماذج جسمية رئيسة، وحاول أن يجد لكل نموذج جسمي ما يناسبه من النماذج المزاجية والعقلية، لاعتقاده أن السلوك الإنساني عامة، والسلوك الإجرامي خاصة ليس إلاّ وظيفة ناشئة عن تكوين جسمي معين، وأن هذا التكوين الجسمي يشكل انحطاطية مرضية. وهذه النماذج هي:

\* النموذج الداخلي " الحشوي أو البطني"Endomorphic : ويتميز بضخامة حجم الجهاز الهضمي والأحشاء، ويتمتع بسمنة مفرطة، وتتصف مختلف أعضائه بالترهل والدائرية والنعومة، وأطرافه قصيرة، وعظامه ناعمة صغيرة ودقيقة، ويتمتع هذا النموذج بمزاج خاص يتمثل في الارتخاء الدائم، والميل نحو الراحة والمرح والإفراط في الأكل، واقتناء الكماليات المتصفة بالنعومة، وأطلق عليم تسمية "الحشويون" Visceretonic.

\*\* النموذج العظمي أو العضلي " الوسط "Mesomorphic : ويتميز بقوة الجهاز العضلي وكبر الهيكل العظمي بصورة عامة، ويتميز بالنشاط العضوي العام والثقة بالنفس والميل للمغامرة والعدوانية والمقاتلة والمنافسة، وقد أطلق عليهم" النشطون"Somotonic .

\*\*\* النموذج الجلدي "الدقيق الخارجي "Ectomorphic: ويتميز بانخفاض الصدر وضعف البنية بشكل عام، صغير الوجه، حاد الأنف، ناعم الشعر، ويكون هذا النموذج متميزاً بالانطوائية، والشكوى من الأمراض والقلق، ويميل إلى الابتعاد عن التجمعات وأطلق عليهم "العقليون أو المخيون"Cerebrotonic.

ولكي يتأكد " شيلدون " W. Sheldonمن صحة افتراضه على أساس أن السلوك الإجرامي وظيفة ناشئة عن تكوين جسمي معين. قام بإجراء بحث شمل "200 " طفلاً من الأطفال الجانحين الذين أحيلوا إلى أحد المراكز الاجتماعية في مدينة " بوسطن " الأمريكية. وبعد إجراء الفحص عليهم من النواحي الطبية والنفسية والعقلية المختلفة خلص إلى نتيجة مفادها: أن هؤلاء الجانحين يختلفون عن غير الجانحين في تكوينهم البدني والمزاجي والعقلي. وأن هذه الاختلافات تشكل دونية انحطاطية معينة وهي موروثة. كما لاحظ أن معظم أفراد العينة يتميزون بأوصاف وملامح النموذج البشري الوسط ثم قارن هذا الاستنتاج بالنتيجة التي خلص إليها في دراسته السابقة لـ "4000" طالباً الذين وجدهم موزعين على النماذج البشرية الثلاثة السالف ذكرها.

3. شيلدون وأليانور جلووك:

حاول الزوجان" شيلدون وأليانور جلووك "Sheldon & E. Glueck إثبات صدق وصحة افتراضات" وليام شيلدون" " فقاما بدراسة "500" طفلاً من الأطفال الجانحين مقارنين إياهم بـ"500" طفلاً من الأطفال غير الجانحين كمجموعة ضابطة، فتبين لهما من خلال الدراسة أن الأطفال الجانحين يختلفون عمن سواهم من النواحي الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية. كما لاحظا وجود استعداد كامن وميل نحو الجناح والانحراف لدى الأطفال الجانحين نحو النموذج العظمي"الوسط" وأمكن تحديد الخواص المزاجية والنفسية التي تؤدي بهؤلاء إلى الانحراف وهي العدوان والمقاتلة والسيطرة على الغير بحكم مايتوافر لهذا النموذج من قوة عقلية وطاقة حيوية. كذلك تبين لهما أن العناصر الاجتماعية– البيئية والثقافية– قد تترك أثراً يؤدي بهذا النموذج "الوسط" إلى الانحراف بدرجة أقل من احتمالات تأثيرها في النموذجين" الداخلي والخارجي"، وأخيراً أشارا إلى أنه لايمكن تحديد الخواص ذات العلاقة بالبنية والمزاج والسلوك الإجرامي، وبالتالي لم يعتبرا البنية والمزاج عاملاً رئيساً في إحداث هذا السلوك.وأكدا من الناحية الأخرى أهمية العوامل النفسية باعتبارها عناصر تعمل كمجموعة متكاملة في الشخصية. وذكرا مجموعة كبيرة من الصفات النفسية التي لها أثرها في السلوك الإجرامي والانحرافي منها تميز الأحداث الجانحين بالانطوائية والاتكالية والمازوشية والميل للتحطيم والإيذاء والقسوة وضعف القابلية على ضبط النفس، والهروب من مواجهة الحقائق وعدم الاستقرار العاطفي وتحدي الهيئة الاجتماعية وغيرها من الصفات التي تقود الحدث إلى نوع من السلوك الشاذ عن قواعد الهيئة الاجتماعية أو الاصطدام بالقانون.

نظرية التكوين العضوي في الميزان

بالرغم من الشهرة الواسعة لهذه النظرية في معظم البلدان الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية، إلاٌ أنها تعرضت إلى انتقادات عديدة منها:-

\* وصف" مانهايم " الأفكار الذي جاء بها "كرتشمر" بأنها غير علمية ولم تقم على أُسس منهجية دراسية تحليلية. إضافة إلى أن تطبيقها في المؤسسات الإصلاحية عرّضها للاستغلال من قبل بعض الأنظمة السياسية مثل النظام النازي في ألمانيا والنمسا، والنظام الفاشي في إيطاليا.وهناك أبحاث أجريت بشأنها لم تثبتها. كما أن الأساس الجسمي الذي بنيت عليه ليس واضحاً. فقد تبين أن الناس لا ينقسمون إلى الأقسام التي ذكرها كرتشمر فحسب. وحتى هؤلاء الذين يمكن إدراجهم تحت أحد هذه الأقسام لا يتصفون بالضرورة بالصفات التي حددها كرتشمر، وبينت إحدى الدراسات مثلاً أن حوالي 50% من الأفراد الذين صنفوا تحت النمط البدين وجد أنهم منبسطون بينما 30% منهم كانوا منطوين.

\*\* إن الأسس التي أقام عليها " شيلدون" نظريته هي ذات الأسس التي فسرت ظاهرة الجريمة بالحتمية، فمن كان يحمل الصفات التي حددها "شيلدون " كان حتماً مجرماً، من هنا فهو يتفق مع " لومبروزو" في هذا الشأن. وبالرغم من أن دراسات "شيلدون" في هذا المجال جاءت لدعم فرضيته بوجود النماذج البشرية التي أشرنا إليها والمميزة للأطفال الجانحين إلا أنه عجز في الواقع عن بيان الكيفية التي تتكون بها مثل هذه الصفات الانحطاطية، وكيفية انتقالها بعملية الوراثة. كما جاءت تعميماته النموذجية لا تنطبق على جميع الجانحين، ومن ثم لاتصلح معياراً علمياً للتمييز بينهم كنموذج بشري وبين غيرهم من الأطفال الأسوياء.هذا بالإضافة إلى قلة عدد الجانحين الذين اتخذهم عينٌة للدراسة. وأن الدراسات التي قامت على نظرية شيلدون لم تثبت العلاقة بين الصفات الجسمية والصفات المزاجية. ذلك أن هناك عوامل تؤثر في تكوين الجسم مثل وظائف الغدد وهرموناتها، كما أن أمزجة الأشخاص قد تتأثر بخصائصهم الجسمية. ومن ثم فإن دلالة التكوين الجسماني من حيث علاقته بالشخصية لا يمكن أن تحدد بمعزل عن العوامل الاجتماعية الضاغطة والكيفية التي يواجه بها الفرد هذه العوامل أو ردود أفعاله تجاهها. ذلك أن تصور الإنسان لجسمه يمثل في الواقع صورة لذاته، وعليه فإن صاحب النط الحشوي مثلاً قد نتوقع منه أن يكون بشوشاً مرحاً، وقد ينظر إلى نفسه أنه كذلك فيعمد إلى تأكيد تلك الصفات في سلوكه.